مدخل إلى علم التاريخ

الاسم بالعربية

Course Name

استاذ المقرر

د/ عبدالحليم رمضان

جامعة الملك فيصل

عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

كلية الآداب

المحاضرة الثانية

نقد الوثيقة

تمهيد:

بعد أن توصل الباحث لمراجع بحثه ومصادره الأصلية لعل الأسئلة التي تفرض نفسها عليه وعلينا هي :

1-كيف استفيد من هذه المصادر والمراجع ؟

2-إلى أي حد يمكن الاعتماد على مادتها العلمية ؟

3-هل يجب مناقشة الآراء المختلفة , والوصول إلى رأى شخصي يرجح بعض الآراء , وينفي الأخرى ؟.

4-وما الحدود التي يجب ألا يتخطاها الباحث في ذلك ؟

5-كيف يسجل الباحث بعد ذلك ما وصل إليه من نتائج ؟

6-ما الصورة النهائية التي يجب أن يكون عليها الباحث ؟

وللإجابة على هذه الأسئلة نوضح أولا المراحل التي تمر بها المادة العملية (المادة الخام) لتصبح مادة صالحة لبناء النسيج الذي يتكون منه البحث .

الأصول التاريخية وكيفية الاستفادة منها:

ولنبدأ بالوثائق التاريخية وكيفية الاستفادة منها :

لما كانت الحقيقة في ذاتها هي الهدف الذي يرمى إليه الباحث – لذلك كان لابد من التأكد من أن (الأصول) أو الوثائق التي يبنى عليها استنتاجاته صحيحة وأنها ليست مزيفة تزييفاً كلياً أو جزئياً .

وقد ظهر أن كثيراً من الوثائق التي استخدمت في الماضي دون نقد أو تمحيص مزيفة , وبالطبع فكل ما بني عليها من استنتاجات لا قيمة له , ومن ثم ذهب كل جهد بني على هذه الأصول المزيفة هباء .

ولذا ينصح الباحث أن يتأكد أولاً من أصالة النص بأن يبدأ بنقد الأصل – فإذا ثبتت صحته بصورة قاطعة يمكن أن يستخدمه باطمئنان .

والنص يتعرض لنقد ظاهري , ونقد باطني , والمؤرخون الألمان يتخذون لفظ (فحص بدلاً من نقد) .

النقد الظاهري :

يقصد به التأكد من شخصية كاتب النص , ومن صحة نسبه إليه , وذلك بطرق مختلفة , كاختبار نوع الحبر المستخدم , والقلم الذي كتب به النص , ودراسة اللغة , والأسلوب , والمصطلحات, والصيغ الخاصة بالفترة التي كتب فيها النص , هذا بالإضافة إلى العادات الجارية في ديوان من الدواوين في زمان من الأزمنة , أو الخصائص المشتركة بين كل الوثائق التي من نوع معين والتي ثبت يقينا أنها صحيحة . فالباحث عليه أن يعقد مقارنة بين عدد كبير جداً من الوثائق المتشابهة قبل أن يصدر حكماً جازماً على حالة معينة أمامه .

وتتطلب عملية النقد هذه جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن كاتب الوثيقة , وهذا يخدم في الحكم على مدى تحريه الحقيقة , ومدى علاقته بالأحداث التي كتب عنها . وهل شاهدها بنفسه أو اشترك فيها أم أنه يكتب عن أشياء سمع عنها فقط , وهل مضى وقت بين وقوع الحدث نفسه وبين تدوينه .

فقد يكون النص صحيحاً غير مزيف , وقد يكون كاتبه من الأشخاص الذين عرف عنهم تحرى الصدق فيما يكتبون – لكن لبعد الزمن بين وقوع الحادث وبين تدوينه يلتبس عليه الأمر فيمهل ذكر تفاصيل هامة أو يخطئ عن غير قصد في ذكر أحداث معينة ، فمعرفة كاتب الأصل وتاريخ كتابته وعلاقته بالأحداث – كل هذه ، تهم وتخدم في الاطمئنان على دقة ما جاء بالنص .

والنص الأصلي قد يكون بخط المؤلف أو قد يكون مملى عليه ، ويكون المؤلف قد راجع الإملاء , وفي هذه الحالة يعتبر النص في مرتبة النسخة التي بخط المؤلف .

ويعطى دكتور أسد رستم أمثلة لبعض النصوص والوثائق التي احتوت أموراً هامة وخطيرة ونسب صدورها لأشخاص معينين – لكن ثبت بعد ذلك أنها مزورة ومدسوسة على أصحابها .

ومن هذا القبيل نوع من التزوير لم يسلم منه كثير من الأصول . ذلك أن أصحاب الكتب الخطية كانوا في بعض الأحيان يضيفون في المخطوط الذي تحت أيديهم على الهامش أو في أواخر الفصول والأبواب أخبار أو آراء جديدة تتعلق بما جاء بالمخطوط , وتمر الأيام وتضيع النسخة الأصلية للمخطوط , وينسخ الكاتب مرة أخرى من النسخة المنقولة بإضافتها , وتدخل الزيادة في الأصل , ويختلط الشرح بالمتن , ويختلط الأمر على المتأخرين فينسب كل ما في النسخة الخطية المتأخرة بما فيها من إضافات إلى المؤلف الأصلي . وهو نوع من التزييف فنحن ننسب للمؤلف ما هو في الحقيقة من تحريف الناسخ .

والإضافات من هذا القبيل على نوعين :

(أ) الحشو : والبعض يطلق عليه لفظ (الدس) ويقصد به إدخال كلمات أو جمل (إضافات) في النص لم تكن فيه من قبل .

(ب) الإكمال : يقصد به إضافة لأحداث أخرى للنص الأصلي بأيد أخرى دون أن يهتم المكمل بذكر أين ابتدأ إكماله وأين انتهى .

وفي بعض الأحيان يمكن بيسر فصل الوثيقة الأصلية عن الإضافات – كأننا نستعمل مقصاً , وفي أحيان أخرى يختلط الأمر فيصعب تمييز مواضع اللحام .

وفي هذه الحالة تصبح مهمتنا محاولة استعادة الأصل أو على الأقل عزل الوضع السقيم المشكوك فيه .

ويعطى دكتور أسد رستم أمثلة لبعض الكتب التي نشرت اعتمادا على نسخ خطية دست فيها أخبار كثيرة ثبت فيها بعد أن تاريخ حدوث بعضها لاحق لتاريخ وفاة المؤلف الأصلي نفسه .

وهكذا يصبح من اللازم التحقق من أصالة الأصول . وإن كان الأمر يستلزم من الباحث – قبل الاعتماد على الأصل – بذل جهد مضن سواء بدراسة الوثيقة من حيث زمن كاتبها أو أسلوبه أو طريقة التدوين في ذلك الوقت أو نوع الأوراق المستخدمة – إن كانت رسمية أو غير رسمية – أو أختامها أو طريقة الكتابة نفسها سواء من حيث طريقة توجيه الخطاب أو الرسالة أو طريقة إنهائها , أو غير ذلك من الوسائل التي يتذرع بها الباحث للتأكد من أن الأصل الذي سيستخدمه صحيح . وقد يصل الباحث بعد الجهد الذي بذله لاختيار النص إلى تقرير حقيقة مرة وهي أن النص الذي أيدينا لا يمكن إصلاحه والاعتماد عليه .

النقد المادى للوثيقة أو الأثر الكتابى

١ – دراسة مادة الكتابة (حجرا أم رقًّا أم ورقا . . الخ) وأداتها (مسمارا أم قلما بأنواعه وأشكاله المختلفة) والأصباغ أو الأحبار ، كل أولئك يُعتبر وسيلة أساسيَّة فى التحقّق من صِحَّة الوثيقة أو الأثر الكتابى ونِسْبته لعصره . لهذا فإنه يتحتّم علينا أن نعرف أدوات الكتابة ومادتها عبر التاريخ على نحو موجز[1] .

٢ – لقد كانت الكتابات الأولى عبارة عن صور فجَّة Crude Picture محفورة على الصخور والأحجار ولحاء الشجر والمعادن والصلصال أو أى مادة أخرى متوفّرة . وبعض هذه المخطوطات القديمة يُمكن تفسيرها وإن لم يبق منها إلّا ما صاغه الإنسان رسوماً على الحجر أو المعدن أو الصلصال ، أما رسوم الإنسان البدائى أو المُغْرق فى القدم التى صاغها على لحاء الشجر أو حتى على جلده هو أى جلد الإنسان ، فهذه فَنِيت بفَناء اللِّحاء والجلد البشرى .

٣ – وفى الفترة من ٣٦٠٠ قبل الميلاد إلى ٢٣٥٧ قبل الميلاد ازدهرت الحضارة السومرية فى دجلة والفرات . وفى حوالى سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد بدأ المؤرخون السومريون فى تسجيل وقائع التاريخ السومرى المعاصر لهم وتصور ما مر عليهم من حقب تاريخية ، وطريقة السومريين فى الكتابة هى أقدم طريقة عُرفت حتى الآن ، وطريقة السومريين هذه ربما كانت أعظم إسهامات السومريين فى الحضارة ، وكلمة إسفينى أو مسمارى Cuniform التى تصف أسلوب الكتابة السومرية مشتقّة من اللفظ

اللاتينى Cuneus وتعنى وَتد أو إسفين . وكانت المادة التى يكتب عليها السومريون هى الطين غير الناضج أو الطين اللين Soft أما أداة الكتابة فهى قلم يأخذ شكل الإسفين أو الوتد أو المسمار غالبا ما يكون مصنوعا من المعدن أو العاج أو الخشب.وعندما كان الكاتب ينتهى من كتابته فإنه يترك الطين غير النضيج الذى يكتب عليه حتى يجف ويصير يابسا كالحجر .

وهذه القطع من الطين الجاف تكون صغيرة بالقدر الذى يستطيع الكاتب معه أن يحملها فى يده . **وهذه القطع من الطين الجاف هى الكتب الأولى .**

ولقد انتقلت الحضارة السومرية إلى بابل فى الحوض الأدنى لميزوبوتاميا (العراق القديم) تلك الحضارة التى استمرت حتى سنة ٦٨٩ قبل الميلاد والتى قدمت للبشرية حمورابى وتشريعاته القانونية الشهيرة . وكان البابليون يستخدمون نفس مادة الكتابة عند السومريين ونفس الأداة المسمارية . على أن كثيراً جداً من هذه الكتابات المسمارية لم تصمد أمام عوادى الزمن ، وإن نجا منها قدر لا بأس به استطاع مؤرخو العصور القديمة أن يكّونوا من خلاله صورة لطبيعة العصور وروحه .

ومن بين الألواح الهامة والتى لازالت باقية حتى اليوم قانون حمورابى Code of Hammorabi وهو محفوظ الآن فى متحف اللوفر فى باريس ،وكذلك ملحمة جلجامش Gilgamish Epic وهى جزء من قصة البابليين مع الطوفان .

٤ – أما المصريون القدماء الذين انتعشت حضارتهم فى وقت مزامن للحضارات السومرية والبابلية والأشورية ، فقد استخدموا مواد أخرى للكتابة إذ كانت أوراق البردى Sheet of papyrus هى الأكثر شيوعا.وأقدم كتابات المصريين ترجع إلى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، وكانوا يكتبون بأقلام هى عبارة عن أغصان معالجة بطريقة خاصة . ولم يكن البردى هو المادة المثلى للكتابة فقد كان عرضه للثقب أثناء إعداده للكتابة كما كان عرضة للتشقق حال جفافه وكان هناك احتمال أن تفسده المياه . ومع هذا فإن أوراق البردى كانت مقبولة للكتابة فى منطقة حوض البحر المتوسط القديم . بل لقد ظل البردى يستعمل كمادة للكتابة حتى سنة ١٠٢٢ بعد الميلاد تقريبا . وكان شكل الكتاب أو الوثيقة فى مصر القديمة هو اللفافة Roll.وعادة ما كانت اللفافة تتراوح ما بين ٢٠ قدم طولا و١٢ بوصة عرضا ، وكانت اللفافة تصنع من جملة أوراق بردى يتم توصيل نهاياتها مع بعضها .

أما الحفر المقدس على الأحجار فقد كانت تستخدم فيه الكتابة الهيروغليفية .

وهناك برديات كثيرة تعد مصدراً أساسيا لبعض مراحل التاريخ الإسلامى خاصة أحوال المصريين أيام الدولتين الأموية والعباسية .

أما الفينيقيون فقد استخدموا أيضاً أوراق البردى وكانوا يستوردونه من مصر ويتاجرون به فى منطقة البحر المتوسط .

٥ – أما الصينيون فقد عرفوا الكتابة فى الألف الثالثة قبل الميلاد وكانوا يكتبون على العظام وظهور السلاحف وسوق البامبو والأقراص الخشبية والحرير وقطع الكتان وكانوا يستخدمون الأقلام المدببة الأطراف والأقلام التى فى نهاياتها فرشاوات وريش الطيور Quill .

٦ – وفى بداية الألف الثانية قبل الميلاد كانت كريت مركزا لحضارة متطورة للغاية حيث انتشرت هذه الحضارة الكريتية فى بلاد اليونان ، وبعد وفاة الاسكندر سنة ٣١٣ قبل الميلاد وحتى الغزو الرومانى شهدت المنطقة حضارة عرفت بالحضارة الهيلينستية Hellenistic.وما يهمنا فى هذا المجال هو أن هذه الحقبة الحضارية شهدت إلى جانب أوراق البردى المستوردة من مصر ، الحجارة والبرونز بالإضافة إلى الأقراص الخشبية المطلية بالشمع Wooden Tablets wax Coated بالإضافة إلى استخدام الرق أو الجلد المرقق Parchement والجلد ، ولقد كان استخدام الجلد والرق فى الكتابة مَدْعاة لظهور أقلام من نوع جديد ، لذا ظهر القلم العريض السن Broad Pointed-pen المصنوع من البوص أو ريش الطيور . ولقد كان الرق أقل عُرضة للتلف . ومهما يكن فقد ظل البردى والرق يتنافسان كمادة للكتابة زهاء قرون ثلاثة ، ولم يصبح للرق الغلبة والسيادة إلّا فى القرن الثالث للميلاد . ولقد كانت الكتب الاغريقية فى شكل لفافة Roll وعلى شكل أقراص خشبية مطلية بالشمع وعلى شكل دفتر Codex وهذا الشكل الأخير كان يأخذ شكلا قريبا جدا من شكل الكتاب الذى نعرفه اليوم ، وإن كان مكونا من عدة أوراق من البردى أو عدة صحاف من الرق . ولم تختلف مواد الكتابة أيام الرومان عمّا كان موجودا قبلهم .

٧ – بانحلال الامبراطورية الرومانية آذنت شمس الآداب الكلاسيّة بالغروب وعانت كل المكتبات بما فى ذلك المكتبات التى تضم بين جنباتها مجموعات كتب مسيحية من

التخريب على يد البرابرة غير ان الأديرة كانت هي المكان الذى حفظت فيه هذه الآداب الكلاسية ، كما تطورت هذه الآداب فى الأديرة خلال العصور الوسطى .

وفى النصف الأخير من القرن السادس أصبحت الأديرة مركز كل الدراسات ومراكز لحفظ كل الكتابات الدينية أو العلمانية ، وفى القرن السادس أيضا شهدت قاعات النسخ Scriptoria فى ايرلندا بالذات نشاطا كبيرا محوره نسخ المخطوطات القومية والفنون القومية . وهكذا بدأ تطور الكتاب المخطوط فى أوربا وشهدت هذه الفترة مخطوطات مجودة الخط ذاخرة بالزخارف الجميلة ، ولقد بلغت المخطوطات الايرلندية ذروة جمالها واتقانها فى مخطوط عن الكرة الأرضية كتب فى القرن الثامن الميلادى .

ولقد تميز حكم شارلمان (٧٦٨ – ٨١٤) بالجهود المبذولة لرفع مستوى التعليم مما جعل هذه الفترة فترة ازدهار ثقافى وتعليمى إذ تم إنشاء قاعات للنسخ والمخطوطات فى الأديرة . وفى هذه القاعات التى لا يحصى عددها عبر أرجاء القارة الأوربية نسخت المخطوطات وأعيد نسخها على أيدى الرهبان والناسخين من غير الرهبان .

وعن طريق هذه المخطوطات عرفنا معظم معلوماتنا عن العالم القديم ففى هذه المؤسسات الديرية تم حفظ الإنجيل وملاحم هوميروس وأشعار فرجيل والمسرحيات اليونانية والأعمال العلمية والقانونية والفلسفية لعمالقة مفكرى العالم القديم .

والمواد الرئيسية التى كان يستخدمها الرهبان فى الكتابة هى الرق المجفف وأقلام من ريش الطيور وأنواع كثيرة من الحبر ذات ألوان مختلفة وكان الكتاب يتخذ شكل لفافة أو دفتر .

ولقد كانت مكتبات الأديرة صغيرة فى بادىء الأمر وكانت المخطوطات غالية الثمن ، إذ كان ثمن نسخة الإنجيل المخطوطة تساوى ما يعادل هذه الأيام عشرة آلاف دولار ، كما كان يمكن مبادلة مخطوطة القداس وهو كتاب صلوات ودعاء بحقل من الكروم .

وبظهور الجامعات زاد ازدهار الكتب المخطوطة وأصبحت الجامعات هى نفسها مراكز لنسخ الكتب وبيعها ، وكانت هذه الجامعات تمنح الناسخين على الرق والجلد إجازات أو شهادات لتبيان مدى إتقانهم لعملهم .

٨ – لقد شهد عصر النهضة حماسة شديدة لاقتناء الكتب غير أن هذه الحاجة لم يكن من السهل إشباعها عن طريق النسخ اليدوى ، ونتيجة هذه الحاجة الملحة تم تطوير

وسيلة جديدة فى منتصف القرن الخامس عشر . . إنها طريقة الطباعة بالحروف المتحركة Movable types ولقد كان نجاح الطباعة يعتمد على رخص تكاليف إنتاج النسخ وعلى توافر الحبر المستخدم ، والمطبعة التى يجب أن تواجه الضغط المتزايد لإنتاج النسخ المطلوبة .

وفى الربع الثانى من القرن الخامس عشر توفر كل ما يساعد على الطباعة فلقد توفر الورق وأضحى رخيصا جيد الصنعة . **ولقد كان الورق قد تم اكتشافه فى الصين فى القرن الثانى** ولكنه كان قليل الاستعمال حتى بين أهل الصين أنفسهم وانتقل الورق إلى أوروبا عبر طرق التجارة **إذ جلبه الأوربيون من بلاد فارس فى القرن الثامن للميلاد وأحله المصريون محل البردى فى القرن التاسع للميلاد** واستخدمه المسلمون فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر للميلاد ، وأصبح يصنع فى ايطاليا فى القرن الثالث عشر للميلاد أو حوالى سنة ١٢٧٠ .

وبانتشار الورق هذا الانتشار الكبير وظهور الطباعة بالحروف المتحركة دخلت البشرية مرحلة جديدة .

وهكذا يمكننا القول أن نهاية القرن الخامس عشر هى بداية النهاية لعصر المخطوط الأوروبى وبداية المطبوع إذ حلت المطبعة محل النساخ ، وحل الورق محل الرّق وما سواه .

٩ – لكن هل يمكن القول أن النقد المادى أو الخارجى للوثيقة أو المطبوع قد انتهى بظهور المطبعة ؟ بالطبع لا ، وإن اختلفت أساليب هذا النقد المادى . فمادة الورق تساعدنا فى نسبة الوثيقة لعصرها ومكانها أحيانا . ففى نهاية القرن الرابع عشر كان **الورق يصنع فى فرنسا وألمانيا من خِرَق الكتان بعد تنعيمها وضغطها بآلات خشبية** ، ثم تكسى بمادة غروية حتى لا تتشرب الحبر أما الأحبار فكانت زيتية .

وواقع الأمر أن سنة ١٤٠٠ تعتبر حدا فاصلا إذ استطاع جوتنبرج أن يطور تكنولوجيا الطباعة بالحروف المتحركة.وكان أول ما طبعه هو ٤٢ سطرا من الإنجيل وذاع صيت هذه السطور الإنجيلية لدرجة أنه أطلق عليها اسم انجيل جتنبرج Gutenberg Bible وكان ذلك بين سنتى ١٤٥٠ و ١٤٥٦ للميلاد.وكان هذا الإنجيل هو أول كتاب يطبع بطريقة الحروف المتحركة.ولقد كانت حروف الكتاب المطبوع فى بادىء الأمر

نقد مضمون الوثيقة :

تناولنا فيما سبق بعض الطرائق المادية للتأكد من صحة الوثيقة وهو ما أسميناه النقد المادى وبيّنا أن نتائج هذا النقد حاسمة فى الغالب الأعم .

أما نقد المضمون فيستلزم قراءة الوثيقة وتحليل محتوياتها للتأكد من الآتى :

١ – أن أسلوب الوثيقة يتمشى مع الروح العامة لأسلوب العصر الذى كتبت فيه .

٢ – ألا تورد الوثيقة أعلاما أو أسماء لم تكن موجودة زمن كتابة الوثيقة .

ويمكن عن طريق تحليل المضمون اكتشاف ما إذا كانت الوثيقة مزيفة أم لا ؟

وقد ضرب الباحثون والمؤرخون أمثلة عديدة على ذلك .(٢)

الوثيقة بين الأثاريين والوثائقيين :

أوضحنا فيما سبق أن الوثائق من الطراز الأول هى كل المراسلات الرسمية وعقود البيع والشراء والإيجار والاستدانة والمشاركة والتمويل وعقود الزواج وقوائم الأسماء وقوائم الحسابات والوقفيات . . . الخ . وقلنا إن أهمية هذه الوثائق أنها إن صحت فان كاتبيها لم يُريدوا بها شهادة التاريخ ومن هنا يأتى صدقها . وسواء كتبت هذه الوثائق على العظام أو الخسب أو الطين غير النضج أو الصخر أو البردى أو الرق أو الجلد أو الورق أو الخشب أو الخشب المطلى بالشمع ، فهى جميعا وثائق .

ولكن لاعتبارات عملية ، لأنه كما سبق أن قلنا يستحيل على الإنسان الواحد بعمره القصير وقدرته المحدودة أن يتخصص فى العلم كله أو التاريخ كله ، **لذلك فقد جرت العادة أن تكون الوثائق المنقوشة على الحجر والمكتوبة على الطين من اختصاص علماء**

الآثار ، والوثائق المكتوبة على الجلد والرق والبردى والورق غالبا من اختصاص الوثائقيين . فالاثاريون يهتمون بالنقوش على شواهد القبور والكتابات فى المساجد رغم أنها أحد مصادر المؤرخ الذى يعمل فى مجال التاريخ الاسلامى وغالبا ما يهتم الأثاريون بأوراق البردى أيضا سواء كان مكتوبا عليها وثائق أم كتابات عادية .

وعلى الباحث التاريخى أن يراعى ذلك كله ويضعه فى اعتباره فيراجع ما كتبه الأثاريون والوثائقيون من كتابات متصلة بالعصر أو الفترة التى يؤرخ لها .

تعريف ببعض دور الوثائق فى العالم :(٢)

سبق القول أن الوثائق هى المصدر البكر للتاريخ ، ولقد توفرت الوثائق بكثرة خاصة فى مجال التاريخ الحديث والمعاصر . وقد عمدت كثير من الدول إلى تجميع وثائقها فى مكان محدد عرف باسم دار الوثائق القومية أو دار المحفوظات القومية أو الأرشيفات القومية . وعمدت إلى تنظيمها ووضع الفهارس لها وإصدار طبعات ببعض الوثائق الهامة . كما عهدت بعض الحكومات إلى تخريب بعض الوثائق الضارة بسمعتها أو حجبها عن دور الوثائق أو عن القراء والباحثين .

وبعض البلاد ذات التاريخ العريق لديها وثائق مكتوبة تلقى ضوءا على تاريخها الوسيط والقديم كالبرديات المصرية مثلا التى تؤرخ لمصر الفرعونية والاسلامية لكن جرى العرف أن يكون مكان هذه البرديات (الوثائق) هو المتحف وليس دار الوثائق وفى بعض الأحيان تحتفظ بها بعض المكتبات .

وفى السطور التالية إلمامة عن بعض دور الوثائق :

تمت بحمد الله